Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في قلبه واضطراب في أعصابه واختلال في نظام حياته يظهر على الأخص في الأكل وفي النوم وفي الشغل ويجعله غير صالح لشيء سوى أنه يقضي أوقاته شاخصاً إلى صورة محبوبته مستغرقاً في عبادتها ذاكراً أوصافها وحركاتها وإشاراتها وكلماتها. نظرة في عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل أنه ماشٍ في طريق مغروس بالورد أو راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية فوق فوق قريب السماء. وفي هذه اللحظة يكون سعيداً أسعد من أكبر ملوك الأرض فإذا انقضت عاد إلى ما كان فيه من العذاب والألم»[1].

في هذا المزاج الذي جمع بين الذكاء الفطري والمعرفة المكتسبة والخبرة الواسعة، بين جدّ رجل القانون ودقة الأديب الطروب يتكوّن الاحتياج الشديد إلى الاصلاح. لأننا إذا أردنا إصلاحاً في التعليم مثلاً فلا ننتظره ممن لا يحسنون القراءة، وإذا أردنا تعديل القانون وتنقية الأحكام فلا نطلبه من مستبدٍّ قانونه أنانيته. وإذا شئنا تصفية الذوق وتلطيف الشعور فلا نلجأ إلى الطبائع الخشنة والشعائر الضخمة بل نأمل في الفكر المصقول والعقل الراجح والنفس المتّقدة عواطف، لتسوق بالناس إلى حبّ التحسن والرفعة المعنوية. ورقيق القلب نافذ الفكر يتعذّب بمعاشرة من لا يشبهه، ولا يميل إلّا إلى من تفاهم معه، فينتخب أصدقاءه انتخاباً لا يجعله متساهلاً فيه احتياجه المؤلم إلى خلٍّ وفيّ إقرأ كيف يصور قاسم الصديقين:

«تأمل في بمسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى. متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسري عقلهما من موضوع إلى موضوع وينتقل من الجزئيات إلى الكليات ويمر على الآمال والآلام والقبيح والحسن والناقص والكامل. كلّ عمل أو فكر أو حادث أو إختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً ويفيد نفسيهما لذة جديدة. كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة

(١) «كلمات» قاسم أمين.